قصة بونابرت لـ أحمد عامر

(1)

بعد صلاة العصر يختلي الشيخ عبد المحسن الجيزاوي بنفسه وكتبه وقرآنه , ولا يجرؤ أحد أن يخترق هذه الخلوة مهما كان الخطب , ولكنهم الآن وفي هذا اليوم خالفوا هذه القدسية , دخل حفيده سليم بطاقيته المرقعة وجلبابه المتسخ يبدو عليه الجهد والهلع : سيدي عبد المحسن لقد هزم المماليك يا جدي بشبراخيت وحرقوا المراكب .. أخبرني والدي أن أنقل لك النبأ , الفرنجة قادمون إلى القاهرة

صاح عبد المحسن : يا الله .. لا حول ولا قوة إلا بالله

أستند عبد المحسن بحفيده وخرج من المنزل وكانت الحواري والأزقة والشوارع بحالة من الهرج الكبير , الكل يجمع ما لديه من سلاح وأواني وسيوف وسكاكين ويتوجهون لساحة بولاق حيث ابراهيم بك , يصطفون جنوداً تحت إمرته

عندما رأى أبو سليم والده الشيخ عبد المحسن يقبل عليه قال له : أدعوا الله يا والدي أن ننتصر على الفرنجة فأنت مستجاب الدعوة " نظر لولده " هيا يا سليم أذهب مع الصبيان وساعد في نقل الأواني وغيرها , لا مجال للتقاعس , الكل يعمل

تأمل عبد المحسن القاهرة , لم تعد القاهرة التي عرفها , الحركة والجلبة والهرج والخوف والهلع , خرجت النساء لتساعد الرجال بدأ الجميع يتناقلون الأخبار ويتشاركون الرؤى ووجهات النظر , الشعب الذي يبغض المماليك صار يشاركهم حروبهم ويقف جندياً تحت امرتهم , هناك شيء جديد يجري يا شيخ عبد المحسن , ما بال القاهرة ؟ وما الذي ينتظرها ؟ " نظر لولده وسأل " ما سبب الهزيمة بشبراخيت ؟

أبو سليم يريد أن يكتم الخبر كما يكتمه ابراهيم بك وكل من شارك بهذه المعركة حتى لا ييأس الناس ويقنطوا , لكنه همس بأذن أبيه : لديهم شيء ليس لدينا .. لدينا سيوف ولديهم بنادق !

عبد المحسن بإستغراب : بنادق ؟

كان جوزيف بونيو ذو العشرون عاماً لا ينفك عن الإنبهار بنابليون سيده وقائده , كان يلازمه اينما حل ويقول فيه الشعر ويمدحه , لذا كان يحبه نابليون ولا يبخل عليه بصحبته , منذ أن نزل الفرنسيون مصر ونحن نتعامل أننا بحرب وهو يتعامل كأنه بنزهة !

بعدما نزل الفرنسيون مصر قرر نابليون إختراق صحراء موحشة للوصول إلى القاهرة بأسرع وقت ممكن , لقد رمى بنا في مجازفاته وتهوره المعتاد , ولكن هناك حظ غريب يرافق هذا الرجل , نابليون بونابرت , ذلك الرجل المحظوظ دوماً , فتك بنا السراب ولم يفتك به , كنا نهرول من بئر لأخر , لقد ألهبت الشمس جباهنا ولم تؤثر به , كأنها خافته وخشيت منه , كلنا تصببنا عرقاً ومتنا عطشاً وهو ثابت كتمثال رخامي له نظرته البعيدة الهادئة التي لا تفارقه , بينما نخسر كل ساعة جندياً في هذه الصحراء يموت من العطش والسراب ونابليون , اسأله , ما نهاية هذا يا سيدي ؟

ضحك نابليون وقتها وكأنه لا شيء يحدث بخارج خيمته : نهايته القاهرة

سألته : كيف تتحمل العطش يا سيدي وهذه الصحراء , ألا تخشى أن تصل القاهرة وحدك وقتل مات جيشك بهذه الصحراء الذي رميته بها ؟

نظر نظرته البعيدة , لا تعرف هل يبتعد للخارج أم يبتعد لأعماقه وأغواره فيقول : إن جيشاً من الكلاب وقائدهم أسد سيصيرون مثله أسود أما لو كان جيشاً من الأسود وقائدهم كلباً فسيكونون جيشاً من الكلاب , القائد هو الرأس يا جوزيف , ولو فكرت مرة أنني لست قائداً ولست حاكماً فلن أكون ذلك , من يريد شيء يا جوزيف لا يفكر في العوائق والأعذار , لا يتعذر إلا خوار وجبان , أنا لا أعرف الأعذار ولا أعرف الأوهام , أمقت العوائق وأتجاهلها , أعرف فقط ما أريده , سنجتاز الصحراء أو جهنم حتى لنصل للقاهرة , وسنجتاز وسنصل هذا ما أريده وما سوف يحدث

جوزيف يعود من تشككه لإنبهاره : كيف تعلمت كل ذلك يا سيدي ؟

يقف نابليون يتأمل الصحراء والجنود وطيف القاهرة من بعيد ثم يقول : لم أتخيل يوماً في حياتي أنني سأأتي للشرق , للمسلمين , هل تعرف يا جوزيف , عندما قرر والدي ارسالي للمدارس العسكرية

بفرنسا كنت منبوذاً من الأخرين لأنني ريفي حتى لهجتي كانت مثار سخريتهم , كان والدي قاسياً ولم يكن هناك شخص واحد يتقبلني في هذه الحياة , ولكني وجدت من يحتويني ويعرفني وأعرفه ويصاحبني وأصاحبه , الكتب يا جوزيف , لقد قرأت الكثير من الكتب وتفوقت على كل من يمقتوني وأبهرتهم وأثبت لهم أكثر من مرة أنني الأفضل , كنت فخوراً بعقلي , وكنت أسخر من غبائهم وجهلهم , لقد عرفت القوة التي تسكن الكتب , وقليلون هم الذين يشعرون بها , العزلة والكتب صنعتني يا جوزيف , قابلت بهذه الكتب المسلمين وغيرهم , ولكني أكن لهؤلاء المسلمين مشاعر خاصة .. هل تدرى أنهم فتحوا العالم بسيوفهم هذه في أقل من نصف قرن

يخرج جوزيف بعدما شعر بأنه أثقل على نابليون الحديث , نابليون شاب في الخامسة والعشرين من عمره يتحكم بمصير الأمم , أول بزوغ أسمه كان بمذبحة دموية , لقد أطلق المدافع على مظاهرات الملكيين , فلول العهد البائد , كسر شوكتهم , ومنذ هذه اللحظة وقد أعتبر أيقونة للثورة , ملأ شوارع باريس بدماء الفرنسيين ولكنهم ليسوا فرنسيين عاديين .. أنهم الفلول

قال له نابليون مرة : لم أقدم على هذه الخطوة من قصف البشر بالنار حتى عرفت أنها الطريقة الوحيدة للتغيير في العالم , الدماء هي لغة المجد في عالم السياسة , لا مستقبل مزهر بلا أن يسقى بالدماء , لابد من الدماء يا جوزيف , لابد أن تقتل يومياً لتصبح أقوى , القوة هي المركز الوحيد لهذا الوجود الإنساني

عندما رأى الجنود الفرنسيون نهر النيل من بعيد , ظن بعضهم أنه السراب مجدداً , لقد قتل السراب منهم أكثر مما قتلهم العطش , لقد أنتحر الكثيرين بسبب السراب , هرعوا وشربوا ومروا بالحقول فخربوه وأكلوا وقاموا بسلب بعض القرى .. ونابليون من بعيد ينظر إليهم وإلى القاهرة .. حتى جائت موقعة شبراخيت , لم يكلف المماليك الفرنسيون شيئاً أكثر من بعض القذائف المدفعية ليهرب المماليك ومن معهم من الفرق .. يقال أن نابليون يتجنب الإحتكاك بالشعب مباشرة لهذا أختار الصحراء , يعرف أنه لو قابل المدن والقرى قد يلقى ما لا يحبذه , ويعرف أن من يسكن القلعة فقد ملك مصر , ولهذا هو يذهب عبر صحراء تجاه القلعة ليحكم مصر !

(3)

جلس الشيخ عبد المحسن عند عتبة منزله يدعو ويبتهل , ويؤمن على دعائه من يتحلقون حوله الصبية والعجائز والنساء من الشرفات والمارين , حالة الترقب تتخلل الجميع , والوقت يمر بثقل على الجميع , والشمس كأنها تستعجل الغروب عن هذا اليوم وألا تشهده , لم يحدث للقاهرة كما يحدث لها الآن , لم يعد ما كان كما هو , هناك شيء تغير , أرسل جماعة من العلماء المصريين رسالة لأهل الحجاز بأن يبحروا إلى مصر حتى لا يغلبها الفرنجة , وأمروا أن يدعوا المسلمين للجهاد , ولكن لم يلبي أحد الرسالة ولا حتى بالتعذر , ما الذي حدث ؟

جاء من أقصى الحارة سليم حفيده يخبره : جدي عبد المحسن وصل نابلو وصل نابلو .. ستبدأ المعركة , صاح عبد المحسن : ياااااارب " ردد معه الجميع " يااااااااااارب " صارت الصيحة تنتقل من حارة إلى حارة حتى وصلت لساحة بولاق حيث ابراهيم باشا ببولاق مع المصريين فأخذوا يبتهلون مع المصريين : يااااااااااااااااااااااارب

بامبابة , بالقرب من الأهرام أخذ يصف مراد بك المماليك للإستعداد للمعركة , شرع في خطبة لهم قال فيها : الحمد لله رب العالمين , يا كتيبة الإسلام , يا عمود الدين , يا شباب الأمة , يا كتيبة القاهرة , يا ايها المماليك , كل حجر هنا يشهد لكم ويشهد عليكم , يشهد لكم بأنكم خدمتم الإسلام ونافحتم عنه وجاهدتم في الله حق جهاده فلم تخذلوه ونصرتم الله في مواقع كثيرة فلن يخذلكم اليوم , وكيف بدأ عهدنا , الم يبدأ بمواجهة الفرنجة الفرنسيس بموقعة المنصورة , فغلبناهم وكنا منصورين , فهذه بداية جديدة , بيننا وبينهم , وبسيوفنا ,وإيماننا , سنقاتلهم على الحسنيين إما النصر أو الشهادة , إما النصر أو الشهادة , إما النصر أو الشهادة .. فكبروا يا كتيبة الإسلام وأرجعوا تاريخنا التليد لأمجاده , للعزة والكرامة والبطولة

أصطف الفرنسيون , أخذ يتحرك نابليون بمقدمة الجيش ينظر بعيداً كعادته ناحية المماليك , ثم تثائب وقال لقواده , هيا فلنستعد لننهي الأمر سريعاً أريد الراحة بعد رحلة الصحراء !!

علا صياح : الله أكبر .. الله أكبر من قِبل جيش المماليك , أنتبه الفرنسيون وعرفوا بأنهم سيهجمون , يقتربون .. يقتربون أكثر والصياح يعلو والجياد تنهمر ناحية الفرنجة كسيل عرم , وبين الفريقين يثائب نابليون وينزل يده ليتدم قصفهم بالمدافع

لو تم تثبيت هذه اللوحة , المماليك يهجمون ويصيحون هم وجيادهم , بسيوف براقة ودروع حديدية وراية الإسلام ترفرف عالية خفاقة , بينما الفرنسيون بملابسبهم الزرقاء يقصونهم من مكانهم بالمدافع , ويمطرونهم بوابل الرصاص والبارود , يعلوا الدخان والبارود فيجعل المشهد مظلماً حالكاً , نحاول أن نرى المشهد , ننتظر أن ينقشع الظلام والدخان , ما الذي حدث , الفرنسيون مازالوا بأماكنهم بينما أفترشت الصحراء بجثث المماليك , سيوف تجاه بنادق , قديم تجاه حديث , كأن الشمس عرفت ما أقره التاريخ فقررت من خلفية المشهد أن تغيب حزينة أسفة

هرب مراد بك وبعض ممن تبقوا من المماليك , هربوا من البارود والنيران الأوربية , لاذوا بسيوفهم إلى النسيان , لعله بدأ عصر جديد , يقتل فيه المرء وهو لا يبرح مكانه , بدأ نابليون الزحف ناحية القاهرة , نظر لراية الإسلام تحت حدوات حصانه قال وقتها : لم تنقذك سكاكينهم , تغيرنا ولم يتغيروا , لقد مضى زمن السيف وبه مضى زمنكم .. نعم لقد مضى زمنكم

هرب ابراهيم بك وترك المصريين , تعرض له أحدهم : أين تذهب ؟ ستتركنا لهم ؟ أين ستذهبون أيها المماليك ؟ لن نسمح للفرنجة أن يحكموا بلدنا , أن يحكموا رقابنا , أرجعوا .. أرجوكم .. لا تهربوا من الجهاد ..

سادت حالة من الخوف والحسرة معاً , بعدما كانت القاهرة صباح اليوم كلها جلبة وحركة , هرع كل شخص لمنزله كما يهرع الجرزان للجحور , وبقلب كل امريء فيها غصة ومرارة , تركوا سيوفهم وسكاكينهم وتركوا الشوارع خالية , يقال أن نابليون يتنزه عند الهرم وترسم له بعض اللوحات , كيف يستطيع هذا الرجل تحويل كل شيء لنزهة ؟ هو من يصنع الحدث ولا يعيشه ؟

دخل الفرنجة القاهرة , كان يعرف نابليون أن عيوناً خلف النوافذ تتطلع إليه , كانت السكاكين والسيوف تفترش الشوارع , تركها المصريون بعدما عرفوا أنها لن تغنى عنهم شيئاً , بات نابليون بالقلعة وباتت القاهرة أطول ليلة وأثقلها , كأن ظلام الليل يزداد ظلاماً على ظلام هذه الليلة , يتهامس الناس

ويتقاسمون خوفهم كما يتقاسمون خبزهم , لعلهم يجدوا المواساة , بالتأكيد هناك ما سوف يحدث الأيام المقبلة , هل يحكم الفرنجة مصر ويسكن العثمانلية , هل يحكم الفرنجة مصر ويسكت المسلمون , هل ستصبر القاهرة أن يحكمها فرنجي , هل وهل وهل

ولكن عندما أشرقت الشمس , كأن نابليون يعرف ما يحل بهم ويعرف علاجه , إنك لا تملك أمام هذا الرجل إلا الإنبهار وكذلك الكراهية , يقول جوزيف أتمنى ربع ثقة نابليون بنفسه , أنتشرت منشورات نابليون بين العلماء والطلاب والأهالي , يقول في المنشورات أنه أنقذ القاهرة من ظلم المماليك ووحشيتهم وأنه يشعر بما يعانونه تحت حكمه , وأن نابليون وجنوده يفكرون في الدخول إلى الإسلام !

تهلل البعض بالمنشور وامتعض البعض , وقد دعا بعض الخطباء يوم الجمعة لنابليون , وتجمع العلماء ليزورونه بالقلعة ويكلمونه , فلا مجال إلا المواجهة , أما الترقب المتبادل يخلق الكثير من الأوهام والعداوة , ذهب الشيخ عبد المحسن معهم وصحب معه حفيده سليم , قال الشيخ عمر مكرم السيوطي نقيب الأشراف : عليكم بإختيار متحدث واحد حتى لا تختلط الأصوات ونظهر بمظهر غير سوي أمام العدو

قال الشيخ عبد المحسن وهو يلاحظ امتعاض الشيخ السادات : أنت المتحدث يا شيخ عمر فلا ينسى أحد موقفك ببولاق يوم الموقعة عندما جئت بالبيرق النبوي من القلعة ونشرته أمام العوام ليتجاسروا فلولا أن خذلنا المماليك ..

قاطعه عمر مكرم :خذلوا أنفسهم

(4)

قابل سليم جوزيف عند بوابة القلعة , كان ينتظر خروج المشايخ , كان جوزيف يجيد العربية , فتحدث مع سليم وطمئنه قائلاً : لقد قامت ثورة بفرنسا تطالب بالحرية والعدالة وما جئنا لغرض احتلال مصر ونهبها ولكن لنقطع الطرق بين انجلترا والهند , السيد نابليون من أبرز رموز هذه الثورة , يبدو شاباً في

الخامسة والعشرين ولكن عقله أكبر بكثير مما تتخيل , هو رجل ودود ومتسامح ولين وعبقرية عسكرية , يجب أن تفخروا به لا أن تكرهوه , لقد خلصكم من المماليك

سليم يعجبه هندام جوزيف وملابسه الأنيقة بالرغم من غرابتها , وهذا البنطال , تسائل سليم ماذا يفعل جوزيف عندما يريد أن يخرأ ؟

قال سليم : هل سيدخل الإسلام فعلاً ؟

جوزيف : لا أعرف ولكن يبدو ذلك .. هو يتحدث بود مع المشايخ الآن , يبدو أن الأمور ستسير على ما يرام , المهم ألا يخاف الناس

سليم لوح ناحية القاهرة : الناس عادت كما كانت وأكتظت الأسواق

بينما يتجول جوزيف وسليم بداخل القلعة ويتحدثون عما جرى بالثورة الفرنسية وما القيم التي بنيت عليها تظهر مارتينا فتاة فرنسية شقراء ذات عيون ملونة وفستان أزرق , لأول مرة يرى سليم فتاة بهذه الهيئة , سافرة بهذا الشكل , ليس لدى المصريين أكثر من الكحل لتتزين به نسائهن لهم في المخدع , أما سليم فلقد رأى مارتين وهي الصديقة المتحررة بالحملة الفرنسية , هي الوحيدة التي بلا زوج هنا ومع ذلك تعتبر أنها برحلة لمعرفة مصر ولكتابة كتاب عنها , كانت تجلس مع نابليون كثيراً وتحكي له عن أفكارها , يقدمها نابليون دوماً أنها مثالاً متجسداً للثورة الفرنسية

قال نابليون لعمر مكرم : أنا أقدر الشجعان , عندما هاجمنا الإسكندرية واجهنا رجل يدعى محمد كريم ببسالة , قدرت هذه البسالة وأفرجت عنه , واليوم يا شيخ عمر مكرم أنا أقدرك لأنك حشدت الحشود ببولاق ضدنا ببسالة , ونريد أن نجعلك رئيس الديوان الأول للقلعة وهذا يطمئنكم أكثر

عمر مكرم بصوت جهوري : لا

لم يظهر أي رد فعل لدى نابليون ولكن ظهر بعض الإمتعاض لدي بعض المشايخ , كان يرى بعضهم أنه لو قبل بهذا المنصب قد يكون لطفاً بما قد يفعله رئيس ديوان فرنجي

رجع المشايخ من هذا الإجتماع الأول بلا انطباعات معينة , هو يعبر عن تقديره للعلم ويريد أن ينشيء معهداً للعلوم وكتاباً يصف فيه مصر ويمجدها , ويقول أن مكوثه بمصر مؤقت , وأنه لن يمس المصريين

سوء , وأنه يفكر في الإسلام , أختفى بعد هذا الإجتماع الشيخ عمر مكرم ولم يعرف أحد أين ذهب , يقال أنه أراد أن يغيب عن مكر نابليون وأن الشيخ لديه بعد نظر فيما ينوي عليه بونابرت ؟ ولكن ما الذين ينويه بونابرت ؟

(5)

لم يكف سليم عن زيارة القلعة , وزيارة مارتين , لم يكن الشاب الوحيد , ولم تكن مارتين الفتاة الوحيدة , أنشئت النوادي والحانات وأختلط الشباب بالشقراوات , سألت مارتين : أحكي لي عن الفراعنة ؟!

سليم : هاه

هي تسأل أن يحكي لها عن الفراعنة وهو يريدها أن تحكي له عن سر سحر عينيها الملونة , عن سر جمالها الفاتن , عن سرها كلها , لم يتخيل سليم أن يرى امرأة بهذه المواصفات , شكلاً وموضوعاً , شقراء وملونة وتتحدث في كل شيء وتعتبر لنفسها شخصية ذاتية وتعيش بين الرجال ببلد غريبة بلا خوف , يقول سليم لنفسه : كم نحتاج ثورة مثل ثورتكم يا مارتين .. تغيرنا تعصفنا وتسحقنا لتبنينا من جديد

عندما يرجع سليم لمرقده ليلاً , يفكر بمارتين , بعينيها ,بيدها , بلمستها , بهذه المرأة التي لا تأبه لشيء , لا معنى للشرف عندها , وتفهم الحياة بطريقة لا يستوعبها , هي شيء يسحر كل فتى مثلك يا سليم , يحكي سليم للشباب عن كيف أن صدرها يظهر له جلياً عارياً دون أن تخجل أو تواريه , وكيف أنهم يشرعون الحفلات الراقصة بالقلعة ويتراقص الملونين مع الملونات ويحتضنون بعضهم بلا استحياء , يحكي لهم كيف أختطف لمسة من يديها وكيف كان شعوره , قال له أحدهم : لجمرة من جهنم أهون عليك من لمس امرأة حرام عليك يا سليم , وإن لم تعرضوا عن هذا لأخبر والدك وجدك الشيخ عبد المحسن , ولتعلم يا سليم ان اباك رجل صالح وهو يشارك مع والدي في المقاومة , ويقتلون كل يوم أكثر من خمسة جنود من الفرنجة

قال سليم : أخبرتني مارتين أنهم لا يقلقون من المقاومة .. إنها رد فعل طبيعي كما يعتبرونه , طالما لم تحدث الثورة فهم في سلامة

- أي ثورة
- ثورة كالتي حدثت عندهم .. الشعب يتكتل ويثور ويغضب ويغير كل شيء , نابليون هذا أحد رموز الثورة كان ملازم من سنتين والآن حاكم فرنسا , لأنه وقف بجانب الثورة وقتل الملكيين عندما ناصروا الملك , يقولون أنه يكره الأغنياء لذا أقام وهو ملازم بمذبحة لا يجرؤ عليها قائد كبير عندهم
- لا أعرف ما معنى كلمة ملازم
- لديهم جيش يكون من طبقات من الرتب كنظام المماليك
- نحن غيرهم
- وهم غيرنا

انتشر خبر مقدم الأسطول الإنجليزي بالإسكندرية ومواجهته مع الأسطول الفرنسي , لقد قضى الإنجليز على الأسطول وحاصروا نابليون بمصر ووقفوا عند الإسكندرية يقطعون الإمدادات , عندما سمع أهل القاهرة ذلك قال الشيخ عبد المحسن وقتها : سبحان مسلط الظالمين على الظالمين

قال سليم : ونحن يا جدي

الجد يستغرب من سؤال حفيده : مالنا يا سليم ؟

سليم يقترب من جده : ونحن ما دورنا في هذا كله ؟

والد سليم يستغرب من اتجاهات ولده وكلامه هذه الأيام وغيابه , تغير سليم كثيراً وصار يهتم بأن يخرج بأنظف الثياب وأن يتسائل طوال الوقت .. ولم يعد يهتم لأمر زواجه الذي كان يلح فيه كثيراً

قال الجد : وما دورنا يا ولدي وهم يمتلكون البنادق

- نمتلكها نحن أيضاً يا جدي
- وأنى لنا ذلك ونحن لا نعرف كيف تصنع ؟

- نتعلم
- وأنى لنا ذلك وهم لن يتركوا لنا الفرصة لذلك
- نثور
- ماذا ؟
- نثور يا جدي .. نمتلك زمام أمرنا
- لا أفهم
- الم تسمع بالثورة التي بفرنسا ؟
- ثورة بفرنسا ؟ أنت تقصد الهوجة ؟
- لا .. الهوجة أيام المماليك ضد الغلاء .. أما الثورة يا جدي تقوم على الأفكار على تغيير النظام الإجتماعي كله
- نظام اجتماعي .. مالك يا واد يا سليم .. كلامك أصبح عجيب

قابل سليم مرة نابليون بإحدى زياراته للقلعة , صحبه جوزيف وقال لنابليون : هذا يا سيدي نابليون سليم مصري , ويزورنا بالقلعة كثيراً ويعرف مارتين , حيا نابليون سليم وسأله : ما حال المصريين الآن ؟

قال سليم : لا أعرف

نابليون بإستغراب : لا تعرف ؟

سليم : أقصد .. أقصد أننا لا نعرف عنك وعنكم شيئاً إلى الآن .. ولكن المصريين لا أعرف مالهم وهم لا يعرفون .. أقصد ..

ضحك نابليون وقال : أعرف ما تقصد .. أنت تقصد أنهم لم يعرضوا لهذا الأمر من قبل , أن يحكم فرنجي مصر

سليم بإندهاش : نعم ! لم تحدث من قبل ؟!

غمز نابليون لجوزيف وقال لسليم : عليهم أن يعتادوا منذ هذه اللحظة على الأشياء الغير معتادة

دخل جوزيف بعد اللقاء إلى نابليون وكان بين كتبه وسأله : ماذا قصدت يا سيدي بهذه العبارة

قال نابليون : إنه يجب على مارتن وكل النساء المثقفات أن يتجنبن الشباب المصريين , لا نريد للمثقفات أن ينقلوا القيم الثورية للناس هنا , طريقة كلام هذا الفتى توحي أنه تشرب من مارتن بعض هذه الأفكار , ونتج ما لا نريده , نحن نريد ثقافة التحرر والسفور ولكن لا نريد أن ننشر ثقافة الثورة يا جوزيف , نريد نساء غانجات لا مثقفات

جوزيف لأول مرة يرى حدة نابليون , يعرف أن المؤن قطعت بفضل الإنجليز وأن العثمانيون يستعدون للقتال وأن الحملة توقفت عند الصعيد بسبب القتال العنيف , وأن مشروع نابليون لتشكيل جيش من المسيحيين المصريين باء بالفشل , بعدما أعترضوا أهل الحجاز القادمين لنجدة مصر فهزموهم وفشلت مساعيه , لعلها نواة , الأمور تزداد تعقيداً والجنود لم يتسلموا رواتبهم منذ شهور , المصريين بدأوا يتضايقون من النساء السافرات الذين يمررن بالطرقات ويفتن الشباب

(6)

شرعت الضرائب الباهظة , بدأ الفرنسيين يقتلون كل يوم ثلاثة أو أربعة من المشتبه بهم بالمقاومة ضدهم وقتل جنودهم , تم اتهام ابو سليم وقطف رقبته أمام الجميع والتجول بها بشوارع القاهرة كما كان يفعل المماليك , حتى أنه من السخرية كان الفرنسيين يقولون مثل ما يقول المماليك " بص وصلي على النبي " أنقطعت زيارات سليم للقلعة حزن جوزيف لمصير والده , كان يبكي طوال الليل ويشعر بالعجز , مرض الشيخ عبد المحسن ولازم الفراش , كان يبحث سليم عن رجال المقاومة ليشترك معهم ولكن الشيخ عبد المحسن رفض هذا القرار فلا سند للأم والحريم بعد الشيخ عبد المحسن إلاك يا سليم , لقد قدر الله أن تتحمل المسئولية الآن

هدم الفرنسيون بوابات الحارات ليطاردوا المقاومين , كانوا يطلقون ليلاً بعض الطلقات ليخيفوا بهم الناس , هدموا المساجد بحجة توسعة وتأمين القاهرة , تكشف وجه نابليون الماكر وصار الشعب يغلي فلا يعرف هل ينتظر العثمانيين أكثر من ذلك , أم يهيج كما كان يهيج ضد المماليك , ولكن البنادق ؟ الغدارة كما سماها المصريون ؟ لقد تغيرت المعادلة فلم يصير القتال رجلاًُ لرجل , لقد صار الرجل يقتل وهو من مكانه أو يختبي خلف جدار , فصار الجبان بطلاً والشجاع مهزوماً , معادلة جديدة استوعبها

المصريون , الموت يحوم بالجميع , والخوف يحيط بهم , والضرائب تشتد , الحانات تنتشر والمساجد تغلق , السفور والعري , يفتن الشباب ويغلي بعضهم , والعلماء في حيرة من أمرهم فلا يعرفون ما العمل , لقد غاب المماليك وكانوا هم الكتيبة والجيش والقادة , فلأول مرة يفكر الناس في الإعتماد على أنفسهم وعلمائهم , يقال أنه تم اعدام محمد كريم بالإسكندرية بحجة التحريض ضد الفرنسيين , لقد تألم الكثيرون لنهاية هذا البطل , قال سليم وقتها وهو يصرخ في الجميع : ثوروا .. ثوروا وكونوا جميعاً أبطال

بدأت الخطب بكل مكان , إن ما يفعله الفرنجة ببلادنا وبمساجدنا وبقيمنا ومعتقداتنا أمر عظيم نشروا الخمور وأظهروا السفور والفجور , فرضوا الضرائب وخالفوا العهود وأهانونا ونهبوا منازلنا , فلو سكتنا فهل لنا بعد هذا حياة .. فالسكوت في هذه الحالة موت .. فالسكوت في هذه الحال موت .. فإما أن تحيوا موتى أو تموتوا لأجل الحياة

وقد تحولت هذه الكلمات لأنشودة سرت بين أهل القاهرة ينشدها الجميع وهم يتجهون ناحية الأزهر بالسكاكين والشوم والسيوف , يقولون : نموت نموت لأجل الحياة .. فإما عزيزاً وإما شهيد

ولن نرتضي أن نحني الجباه .. ونخذل فينا أمل وليد

فهيا فهيا جهزوا السيوف .. يسري في دمائنا تاريخ مجيد

تجمع الجماهير بالأزهر وأخذ الخطباء يلعنوا في الفرنجة ويحرضوا على الجهاد , قال شيخ منهم : أيها الشباب .. أيها الناس .. أيها الناس " لمح الوفود لا تنقطع من المسلحين بالشوم والسيوف " أيها المجاهدين .. جاء يوم الخلاص.. يوم الثورة .. يوم النصر والعزة , فليخرج الفرنجة من أرضنا , فليخرجوا للأبد , ولن نخذل الله ورسوله والمؤمنون فينا , فلقد خذلنا المماليك بشقاوتهم , ولن نخذله نحن , فالجهاد الجهاد .. القتال القتال

هتف الجميع , القتال القتال .. الجهاد الجهاد , بينما يهتف الجميع سمعوا دوي قصف , من بعيد , من حيث القلعة , من حيث نابليون , أنبطح الجميع على الأرض عندما أصاب القصف الجامع الأزهر , نابليون يقصفهم , توالت دفعات القصف المدفعي وأهتزت الأرض وأصيب الجامع الأزهر , أحترقت الحواري , وتفرق الجماهير لإنقاذ الناس , البكاء , العويل , هرع سليم بين الهرج والمرج والزحام , سمع بأن الحريق يأكل حارته , كان قلبه يدق بطريقة مؤلمة , كأنه يقول له أسرع لنجدة الأحبة والأهل , كأن

قلبه يريد أن ينفذ من صدره ليسبقه , الحارة محترقة , الناس متفحة , ومنزل سليم , آآآآآآآآه , المنزل أحترق , صعق , المنزل صار كومة من الفحم , جده وأمه وأخته صاروا كومة من الفحم , يريد أن يبكي ولكنه لا يبكي , هو لا يصدق , أخذ يحملق في حطام منزله وحياته ومن خلفه البكاء والعويل والهلع , والنيران , وأصوات القصف لا تهدأ , نابليون يحرق القاهرة , صاح أحدهم , النجدة , النجدة , تعالوا لنجدة الشارع القبلي , صرخ أحدهم في زوجته وهي تبكي أولادها : لا وقت للبكاء .. سنقتل الملعون .. سنقتله

حاول العلماء منع الشباب الخروج من الأزهر لحمايته فقد خرجت الفرنجة بإتجاه القاهرة ولابد أنهم قادمون ناحية الأزهر , بينما يحيا المصريون بلوحة بائسة من دخان ومأساة , هناك من فقد عائلته كلها وهناك من فقد عزيزه , وهناك من فقد كل شيء , الأحداث متسارعة , مع القصف هجم الجنود على الأزهر وأخترقوه بالجياد ودمروا القناديل وأمطروا الناس بالبنادق بالبارود بالعصر الحديث , لم تغنيهم سيوفهم القديمة مرة أخرى ولم ينفع تاريخهم المجيد , سليم بالشارع القبلي يحاول أن ينبش الأنقاض مع الشباب لإخراج الجثث , وجد أحدهم يحتضن جثة مهترئة ومدهوسة ويصيح : أماه .. أمااه .. لا يا أمااه

صاح أحدهم : الفرنجة بالجامع الأزهر دخلوا الجامع بالأحصنة وحرقوا الكتب والقرآن , الإسلام الإسلام

ترك الجميع ما لديهم وأمسكوا بالشوم الوسيوف وهجموا على الجنود , أمسك سليم بشومته ونهض مع الشباب وهو يقول : والله لأقتلنكم .. والله لتغير الثورة فينا كما غيرت فيكم

بينما سليم يهجم مع الشباب , يجد الجميع يتطايرون , يقتلوننا من أماكنهم , من بنادقهم , وسيوفنا لا تطولهم ولن تطولهم , هناك من أستطاع الوصول لأحدهم وبضربة واحدة قتله , ولكنهم بوابلهم يقتلون المئات , أفترشت الشوارع بالجثث , ومازال القصف مستمراً !

قُتل سليم .. لم يضرب بشومته ضربة , فقد كان يتأمل ما يجري , صف من الجنود الفرنسيين الزرق يقتلون جيشاً من الشجعان دون أن يبرحوا أماكنهم , أين الخطأ ؟ لأننا نظن أن سيوفنا ستغنينا وأن ايماننا سينجينا وأن الله سينصرنا وأن تاريخنا يشفع لنا ؟

قُتل سليم وهو يتسائل : لماذا لم ننجح في الثورة ولماذا هم نجحوا ؟

(7)

أكثر من ألفي شخص لاقوا مصرعهم , الناس باتت بالقبور هذه الليلة , الشوارع متفحمة , والجامع الأزهر مظلم بعدما كسرت قناديله وأنتهكت محارمه , والدخان والفحم بكل مكان , سكن صخب القاهرة وبقي العويل وبكاء النساء والرجال حتى , دفنوا الأشلاء ونظروا تجاه القلعة بحنق شديد , في الصباح جاب الجنود الفرنسيون برؤوس علماء الأزهر المتهمين بالثورة بعدما أشيع أنه سيعلن الصلح معهم وجعل الرسام يرسم لوحة بذلك

دخل جوزيف إلى نابليون , كعادته يصنع الحديث ولا يعيشه , يردد دوماً مقولة فولتير أهم قرار أن تكون ذو مزاج رائع , وجده يقرأ في الكتاب ويستمع لبعض الموسيقى , كان جوزيف يصدق حلم أنه بإمكان التعاون بين الفرنسيين والمصريين , سأله : سيدي نابليون .. هناك شيء غريب أشعر به نحوك ؟

أستغرب نابليون من العبارة فترك الكتاب وأستمع لجوزيف : أشعر بأني أحبك وأقدرك جداً وبنفس الوقت أحتقرك وأكرهك جداً

تجاوز جوزيف لأول مرة , ولكن لم يظهر أي رد فعل لدى نابليون , عاد لكتابه وقال له : سأعلمك درساً يا جوزيف .. لا أريدك أن تنساه أبداً : القوة هي مركز الوجود الإنساني .. إما أن تكون أو لا .. أعرف صدمتك مما جرى لأنك حديث عهد به , لم تكن الملازم ذو الثلاثة وعشرين عاماً الذي أجرى مذبحة للملكيين , أما الآن يا جوزيف لابد أن تعتاد على هذا .. فربما لم تقرأ التاريخ مثلي يا جوزيف

.. أما أنا قرأت التاريخ .. ومن يقرأ التاريخ يعرف .. ولا يستوى من يعرف بمن لا يعرف .. والتاريخ يا جوزيف يعترف بالأقوياء فقط

جوزيف بآسى : أحبك وأكرهك بنفس الوقت يا سيد نابليون

تمت